ISSN 3135-4564 تصدر عن الجمعية الليبية للعلوم التربوية والإنسانية
https://alqurtas.alandalus-libya.org.ly/ojs/index.php/qjhar/index مجلة القرطاس مجلة علمية محكمة نصف سنوية

حديث جبريل عليه السلام ودوره في التكامل المذاهب الإسلامية والعلوم الشرعية ــ دراسة تحليلية مقارنة

د. محمّـــــد عال أسلم الطالب أعبيبدي*
أستاذ بجامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية – أبوظبي
sselmou85@gmail.com
https://orcid.org/0000-0001-8875-9270

تاريخ الاستلام 6 / 6/ 2026م تاريخ القبول21 / 8/ 2026م

The Hadith of Jibril (peace be upon him) and its Role in the Integration of Islamic Schools of Thought and Islamic Jurisprudence — A Comparative Analytical Study

***Dr Muhammad Al-Aslam Al-Talib Al-Abidi**
Professor at Mohammed bin Zayed University for Humanities – Abu Dhabi

Abstract:
This study has sought to move beyond traditional commentaries—which have largely confined themselves to explaining the meanings of Islam, faith and righteousness—to explore the hadith's epistemological function in the development of Islamic sciences, highlight its role in achieving integration amongst Islamic schools of thought, and harness this integration to counter the rhetoric of extremism and takfir.
The study has revealed that the secret behind the exceptional status of this hadith lies not only in its encompassing of the pillars of Islam, faith and benevolence, but also in the manner in which these elements are ordered. Whilst scholars of the past have addressed the Hadith of Jibril through commentary and analysis, there remains a need for an integrative reading of it.
This research is based on a fundamental question: to what extent has the Hadith of Jibril (peace be upon him) contributed to building integration between the Islamic sciences and the Islamic schools of thought, and how can

this integration be utilised to counter the rhetoric of extremism and takfir in the present day?
Among the most important findings of the research are the following:
- that the Hadith of Jibril represents one of the foundational texts for the overall structure of the Islamic religion, and is not merely a hadith concerning the chapter on faith.
- that the hadith contributed to the establishment of the various Islamic sciences and linked them within a single epistemological framework.
Keywords: Hadith of Jibril – peace be upon him – its role in integration, Islamic sciences, Islamic schools of thought

الملخّـــص :

حاول البحثُ أن يتجاوز الشـــــروح التقليدية التي اقتصرت في الغالب على بيان معاني الإسـلام والإيمان والإحسـان، إلى محاولة الكشـف عن وظيفته المعرفية في بناء العلوم الإسـلامية، وإبراز دوره في تحقيق التكامل بين المذاهب الإسـلامية، واسـتثمار هذا التكامل في مواجهة خطاب التطرف والتكفير.

وقد كشفت الدراسة أن السـرّ في المكانة الاستثنائية لهذا الحديث لا يرجع إلى اشتماله على أركان الإسلام والإيمان والإحسان فحسب، وإنما إلى الطريقة التي رتب بها هذه المراتب ، وإذا كان العلماء قديما تعرضـوا لحديث جبريل بالشـرح والتحليل، فإن الحاجة لا تزال قائمة إلى قراءته قراءة تكاملية

وينطلق هذا البحث من سـؤال جوهري هو: إلى أي مدى أسـهم حديث جبريل عليه السلام في بناء التكامل بين العلوم الشرعية والمذاهب الإسلامية، وكيف يمكن توظيف هذا التكامل في مواجهة خطاب التطرف والتكفير في العصر الحاضر؟

ومن أهم من النتائج، التي خـرج بها البحث

- أن حديث جبريل يمثل أحد النصـوص المؤسـسـة للبناء الكلي للدين الإسـلامي، وليس مجرد حديث في باب الإيمان.

- أن الحديث أسـهم في تأسيس العلوم الإسـلامية المختلفة، وربط بينها في إطار معرفي واحد.

الكلمـات المفتـاحيـة : حديث جبريل - عليه السـلام - دوره في التكامل، العلوم الشرعية ، الذاهب الإسلامية

المقدمـــــــــة:

الحمد لله والصلاة والسلام على من بعثه الله معلما وهاديا ومبشرا ونذيرا، وبعد؛

يعد حديث جبريل عليه السلام من النصوص النبوية المؤسسة للبناء المعرفي في الإسلام، حتى ذهب غير واحد من العلماء إلى اعتباره "أمَّ السنة"، كما عُدَّت سورة الفاتحة "أمَّ القرآن"، لما اشتمل عليه من أصول الدين الجامعة، ولما انطوى عليه من نسق معرفي متكامل يجمع بين العقيدة والشريعة والأخلاق، ويؤسس للعلاقة المتوازنة بين الظاهر والباطن، وبين العلم والعمل، وبين الإيمان والسلوك..

حيث بين النبي صلى الله عليه وسلم من خلال إجاباته على أسئلة جبريل عليه السلام؛ أسس العلاقة بين الخالق والمخلوق، والتي هي جوهر الدين فرتبها في ثلاث دوائر متداخلة: دائرة الانقياد الظاهري (الإسلام)، ودائرة التصديق الباطني (الإيمان)، ودائرة المشاهدة الروحية (الإحسان).

وهذا التقسيم الثلاثي هو الذي وضع اللبنات الأولى لنشأة العلوم الإسلامية المختلفة، وكان بمثابة البيان الكلي لبناء الدين الإسلامي، وأسس العلاقة بين الخالق والمخلوق.

وبناءً على هذا النص، استقل "علم الفقه" ببحث دائرة الإسلام، واستقل "علم الكلام" ببحث دائرة الإيمان، واستقل "علم التصوف والسلوك " ببحث دائرة الإحسان.

أهمية البحث:

إذا كان العلماء قديما تعرضوا لحديث جبريل بالشرح والتحليل، فإن الحاجة لا تزال قائمة إلى قراءته قراءة تكاملية تستكشف أبعاده الحضارية والمعرفية، وتبين كيف أسهم في بناء العلوم الإسلامية، وكيف أصبح نقطة التقاء بين المذاهب الإسلامية على اختلاف مدارسها، إذ لا تكاد مدرسة سنية معتبرة ــ أشعرية كانت أو ماتريدية أو أثرية أو صوفية سنية ـــ إلا وجعلت هذا الحديث من النصوص المؤسسة لفهم الدين، وإن اختلفت في بعض مناهج الاستدلال أو في طرائق تنزيل دلالاته على بعض القضايا الجزئية.

وهذا الاتفاق يكشف عن وجود أصل جامع يتجاوز مساحات الخلاف، ويؤكد أن النصوص المؤسسة كانت دائمًا أوسع من القراءات المذهبية التي نشأت حولها.

كما تزداد أهمية دراسة هذا الحديث في العصر الحاضر في ظل ما يشهده العالم الإسلامي من اضطراب في ترتيب الأولويات الدينية، ومن بروز خطابات متشددة اختزلت الدين في جانب واحد، أو غلَّبت بعض الجزئيات على الكليات، أو جعلت مسائل الاجتهاد معيارًا للحكم على إيمان الناس وكفرهم.

ثم إن أهمية هذا البحث تتجلى كذلك من كونه يتجاوز المقاربات الجزئية التي تناولت الحديث من زاوية واحدة، ليقدمه بوصفه إطارا مرجعيا جامعا للعلوم الإسلامية؛ فالعقيدة تجد فيه أصولها الكبرى، والفقه يجد فيه أساس البناء العملي، وعلم السلوك

يجد فيه مقام الإحسان، كما يجد علم المقاصد فيه ترتيبا بديعا لأولويات التدين، ويجد علم الدعوة فيه منهجا تربويا قائما على الحوار والتدرج وحسن التعليم.

إشكالية البحث

ينطلق هذا البحث من سؤال جوهري هو: إلى أي مدى أسهم حديث جبريل عليه السلام في بناء التكامل بين العلوم الشرعية والمذاهب الإسلامية، وكيف يمكن توظيف هذا التكامل في مواجهة خطاب التطرف والتكفير في العصر الحاضر؟

ويتفرع عن هذا السؤال الإشكالي عدد من الأسئلة، من أهمها: ما القيمة العلمية لحديث جبريل في تأسيس العلوم الإسلامية؟ وكيف رسم الحديث العلاقة بين الإسلام والإيمان والإحسان باعتبارها منظومة متكاملة؟، وما أوجه الاتفاق والاختلاف بين المدارس الإسلامية في فهم الحديث؟، ويف يسهم الحديث في بناء خطاب الاعتدال والوسطية والحد من ظاهرة الغلو والتكفير؟

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، من أهمها:

- إبراز المكانة العلمية لحديث جبريل في بناء المعرفة الإسلامية.
- بيان أثر الحديث في تحقيق التكامل بين علوم العقيدة والفقه والسلوك.
- الكشف عن مساحات الاتفاق بين المدارس الإسلامية من خلال هذا الحديث.
- إبراز الدور الحضاري للحديث في ترسيخ الوسطية ومواجهة التطرف والتكفير.
- تقديم قراءة مقارنة لحديث جبريل بوصفه مرجعية جامعة للتكامل العلمي والمذهبي.

منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج الاستقرائي في جمع النصوص والروايات وأقوال العلماء، والمنهج التحليلي في دراسة دلالات الحديث وأبعاده المعرفية، والمنهج المقارن في بيان وجوه الاتفاق والاختلاف بين المدارس الإسلامية في فهم الحديث وآثاره في بناء العلوم الشرعية.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تخريج حديث جبريل وأهميته في بناء العلوم الإسلامية. والمبحث الثاني: مراتب الدين ومبدأ التكامل ، والمبحث الثالث: حديث جبريل ودوره في مواجهة خطاب التطرف والتكفير، ثم خاتمة تتضمن أهم النتائج والتوصيات، تعقبها قائمة بالمصادر والمراجع.

المبحث الأول ـ تخريج حديث جبريل وأهميته في بناء العلوم الإسلامية:

المطلب الأول ـ تخريج حديث جبريل وطرق روايته :

يُعد حديث جبريل عليه السلام من أعظم الأحاديث النبوية الجامعة لأصول الدين وقواعده الكلية، حتى عدَّه العلماء من الأحاديث التي يدور عليها الإسلام.

فقد جمع مراتب الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، وبيَّن علاقة الظاهر بالباطن، والعمل بالاعتقاد، والسلوك بالإيمان.

وقد ورد هذا الحديث من طرق متعددة في كتب السنة، وأشهر رواياته ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: « **يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»(1)، وبهذا اللفظ أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ معرفة الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامِ، والقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ، كما أخرجه الإمام البخاري مختصراً في صحيحه في مواضع متعددة، منها كتاب الإيمان(2) وقد رواه أيضاً:الترمذي في سننه(3) ، والنسائي(4) ، الإمام أحمد في المسند(5) ، وقد تلقى العلماء هذا الحديث بالقبول، وعدُّوه من أصول السنة الجامعة.

المطلب الثاني ــ أهمية حديث جبريل في البناء العقدي والعلمي:

لم يكن حديث جبريل مجرد تعليم لأفراد الصحابة، بل كان منهجاً تأسيسياً لتنظيم المعرفة الدينية في الإسلام، فقد جمع أصول الدين الكبرى في صيغة تعليمية واضحة، وهو ما جعل العلماء يعدونه من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام.

قال الإمام النووي:" إن هذا الحديث يجمع أنواعا من العلوم والمعارف والآداب واللطائف بل هو أصل الإسلام كما حكيناه عن القاضي"(6) ، وذلك لأنه نقل عن القاضي عياض قوله: "وهذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه"(7)

كما وصف ابن رجب الحنبلي هذا الحديث بأنه "أم السنة لما اشتمل عليه من أصول الدين"(8) .

وتظهر أهمية هذا الحديث في بيانه الإجمالي لمراتب الدين، حيث حدد الحديث ثلاث مراتب رئيسية للدين، وهي :الإسلام، والإيمان، والإحسان. وقد أصبحت هذه المراتب لاحقاً أساساً لتشكل ثلاثة مجالات معرفية في الحضارة الإسلامية وهي:

1- علم الفقه: الذي يبحث في أعمال الإسلام الظاهرة

2- علم العقيدة أو الكلام: الذي يبحث في مسائل الإيمان

3- علم التصوف والذي يعنى بالسلوك والتزكية والمعبر عنه في الحديث بالإحسان.

كما جاء حديث جبريل ليؤسس التوازن بين العمل الظاهر والاعتقاد الباطن، وهو التوازن الذي حفظ الفكر الإسلامي من الانحراف نحو أحد الإفراط في الظاهر دون روح، أو الإفراط في الباطن دون التزام بالشريعة، وقد أشار الغزالي إلى هذا المعنى عند حديثه عن تكامل الشريعة والحقيقة(9)

ويُعد هذا الحديث من أهم النصوص التي حافظت على وحدة المرجعية العقدية للأمة الإسلامية، إذ اجتمعت المدارس المختلفة على أركان الإيمان الستة التي وردت فيه، رغم اختلافها في تفسير بعض المسائل الكلامية(10) .

المبحث الثاني ـ مراتب الدين ومبدأ التكامل:

إن من أعظم الخصائص المنهجية التي امتاز بها حديث جبريل عليه السلام أنه لم يكتف بتقرير أصول الدين، وإنما رتبها ترتيبا مقصودا يكشف عن فلسفة الإسلام في بناء الإنسان. فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يذكر الإسلام والإيمان والإحسان على سبيل الترادف، ولم يعرضها باعتبارها حقائق منفصلة، وإنما قدمها بوصفها مراتب متكاملة يتدرج فيها الإنسان من صحة الامتثال الظاهر إلى رسوخ الاعتقاد الباطن، ثم إلى كمال المراقبة والإحسان.

ومن هنا أصبح الحديث أصلًا في بناء مبدأ التكامل الذي ساد العلوم الإسلامية، إذ انتقل هذا النسق من النص النبوي إلى الفقه، والكلام، والتصوف، وأصول الفقه، ومقاصد الشريعة، فغدا من أبرز معالم المنهج الإسلامي في النظر إلى الدين.

ولذلك لم يفهم العلماء مراتب الدين على أنها مراتب متعارضـــة، وإنما رأوا أن كل مرتبة تكمل الأخرى، وأن أي محاولة لفصـلها تؤدي إلى اختلال في فهم الإسـلام. وقد أشـار الإمام النووي إلى أن الحديث جمع الدين كله، وأن الإسـلام والإيمان والإحسـان ليســت ألفاظًا متنافرة، بل هي مراتب متداخلة يجمعها أصـــل واحد هو العبودية لله تعالى(11) .

ومن هذا المنطلق، فإن دراسة مراتب الدين لا تقتصر على بيان معانيها اللغوية أو الشـرعية، وإنما تتجاوز ذلك إلى الكشـف عن أثرها في بناء وحدة العلوم الإسـلامية، وفي التقريب بين المدارس العقدية والفقهية والســلوكية، وهو ما يمثل أحد الأهداف الرئيسة لهذا البحث.

المطلب الأول ـ التكامل بين الإسلام والإيمان والإحسان:

يفتتح حديث جبريل بيان مراتب الدين بالسـؤال عن الإسـلام، ثم ينتقل إلى الإيمان، ثم إلى الإحسان، وهو ترتيب يعكس منهجا تربويا ومعرفيا متدرجا.

فالإســـلام يمثل دائرة الانقياد الظاهر لله تعالى من خلال الالتزام بالأركان العملية، والإيمان يمثل البناء العقدي الذي يمنح تلك الأعمال معناها ومشروعيتها، أما الإحسان فهو المقام الذي ترتقي فيه العبادة من مجرد الأداء إلى كمال الحضور مع الله تعالى.

وقد أدرك العلماء هذه الدلالة مبكرًا، فقرر ابن رجب الحنبلي أن هذه المراتب الثلاث ليسـت متباينة، وإنما هي متداخلة، فكل محسـن مؤمن، وكل مؤمن مسـلم، غير أن كل مرتبة تزيد على التي قبلها كمالا.(12)

وهذا الفهم يقطع الطريق على التصـــورات التي اختزلت الدين في أحد أبعاده. فالاقتصار على الإسلام بمعناه العملي المجرد يفضي إلى التدين الشكلي الذي يخلو من أثر الإيمان في القلب، كما أن الاقتصـــار على الإيمان دون العمل يؤدي إلى إفراغ العقيدة من آثارها السلوكية، بينما يؤدي إهمال مقام الإحسان إلى جفاف التدين وتحوله إلى مجرد التزام قانوني يخلو من الروح.

ومن هنا جاءت عنايـة القرآن الكريم بـالجمع بين هذه الأبعـاد، فكـان كثيرا مـا يقرن الإيمان بالعمل الصالح، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [البقرة: 277]، وجعل الإخلاص والإحسان غاية العبودية في قوله سبحانه: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ [الملك: 2].، وحتى من قال إن الإيمان حقيقة هو التصـــديق القلبي دون العمل كالأشـاعرة لأن العطف في الآية السـابقة "يقتضـي مغايرة وعدم دخول المعطوف في المعطوف عليه."(13) ، إلا أن ذلك لا يعني عندهم ذلك أن الأعمال ليســت جزء من الإيمان بل إنهم جعلوا العمل شـــرطا من شـــروط الإيمان التي لا يكتمل إلا بها .

فالطاعات من صلاة وزكاة وصوم هي من :" شرائط الإيمان بدليل قوله - تعالى - في غير موضع :﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ فوصفهم بالإيمان ووصفهم بعمل الصالحات فدل ذلك على أن الأعمال الطالحة من شرائط الإيمان وأن الإيمان هو التصديق."(14) ؛ بل إن القاضي الباقلاني ذهب إلى أبعد من ذلك فقال : "واعلم أنا لا ننكر أن نطلق القول بأن الإيمان عقد بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان ."(15) ، وقال :" وما يوجد من الجوارح وهو العمل فإنما ذلك عبارة عما في القلب ودليل عليه ويجوز أن يسمى إيمانا حقيقة على وجه ومجازا على وجه ، ومعنى ذلك أن العبد إذا صدق قلبه بما قلنا وأقر بلسانه وعملت جوارحه فهو المؤمن الحقيقي عند الله وعندنا ."(16)

كما قرر الماتريدية أن الشريعة إنما جاءت لتترجم حقائق الإيمان إلى واقع عملي، وأن الإيمان الصحيح يثمر الطاعة والاستقامة.(17) ، وكذلك جعل الماتريدية الحديث أساسًا في بيان حقيقة الإيمان، ورأوا أن ما تضمنه من أركان الإيمان يمثل القدر المتفق عليه بين المسلمين، وأن الخلافات الكلامية التي ظهرت بعد ذلك إنما دارت حول وسائل البرهنة أو بعض المسائل الفرعية، لا حول هذه الأصول نفسها، ولذلك أكد أبو المعين النسفي أن أركان الإيمان الواردة في حديث جبريل هي القاعدة التي تنتظم عليها مباحث علم التوحيد.(18)

أما مدرسة أهل الحديث والأثر، فقد وجدت في الحديث أوضح بيان لحقيقة الإسلام والإيمان والإحسان، واستدل به أئمتها على أن الدين يجمع بين اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، وأن هذه الجوانب لا يجوز فصلها عن بعضها.(19) ، ويكشف هذا التكامل عن حقيقة مهمة، وهي أن الإسلام لا يعرف الثنائية بين الظاهر والباطن، بل ينظر إليهما باعتبارهما وجهين لحقيقة واحدة. فالظاهر ترجمان الباطن، والباطن روح الظاهر، ولا يستقيم أحدهما دون الآخر. وقد قرر أبو إسحاق الشاطبي أن الشريعة إنما جاءت لإقامة الظاهر على مقتضى الباطن، والباطن على مقتضى الظاهر، وأن الفصل بينهما مخالف لمقاصد الشريعة(20)

ومن الناحية العقدية، أسهم هذا الفهم في تجاوز كثير من الإشكالات التي ظهرت في تاريخ الفرق الإسلامية. فالخوارج غلَّبوا جانب العمل حتى جعلوا ترك بعض الأعمال موجبًا للخروج من الإيمان، بينما بالغت المرجئة في الفصل بين الإيمان والعمل، فجعلت العمل خارجًا عن حقيقة الإيمان.

أما حديث جبريل فقد قدم تصورا متوازنا يثبت لكل مرتبة خصوصيتها، مع الحفاظ

على ترابطها الداخلي، وهو ما جعله أحد أهم النصوص التي استند إليها أهل السنة في بناء تصورهم لحقيقة الدين .

ولا يقف أثر هذا التكامل عند الجانب العقدي، بل يمتد إلى الجانب الحضاري أيضًا؛ إذ إن بناء الإنسان المتوازن لا يتحقق إلا إذا اجتمعت فيه سلامة الاعتقاد، واستقامة السلوك، وسمو الأخلاق.

ولذلك فإن الحضارة الإسلامية في أوج ازدهارها لم تُنشئ فقيهًا مجردا من الأخلاق، ولا متصوفًا مجردا من العلم، ولا متكلمًا منفصلًا عن مقاصد الشريعة، بل كان العالم الكامل هو الذي يجمع بين هذه المراتب جميعا.

ولهذا السبب لم يكن غريبا أن يجعل علماء التربية حديث جبريل أساسا في مناهج التكوين العلمي والروحي، لأن ترتيب الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان يمثل في حقيقته منهجا لبناء الشخصية المسلمة، يبدأ بتصحيح العمل، ثم ترسيخ الاعتقاد، ثم تهذيب النفس حتى تبلغ مقام المراقبة والإتقان.

وقد أكد الشيخ عبد الله بن بيه أن هذا التكامل هو الذي يحقق التوازن في التدين، ويحفظ المسلم من الإفراط والتفريط، ومن النزعات التي تختزل الدين في بعد واحد دون سائر أبعاده.(21)

المطلب الثاني ــ التكامل بين الشريعة والحقيقة والعقيدة:

ولعلّ من أبرز الإشكالات التي عرفها التاريخ الإسلامي، ولا سيما في المراحل المتأخرة، ما نشأ من الفصل بين مكونات الدين، حتى غدا بعض الناس ينظر إلى الشريعة والعقيدة والحقيقة بوصفها دوائر متعارضة أو متنافسة، مع أن النصوص المؤسسة، وفي مقدمتها حديث جبريل، تقدم تصورا مغايرا يقوم على التكامل لا التقابل.

وإذا كانت هذه المصطلحات قد تبلورت في المدونات العلمية بعد عصر النبوة، فإن مضامينها كانت حاضرة في الوحي، وجاء حديث جبريل ليجمعها في نسق واحد؛ فالإسلام يمثل جانب الشريعة وأحكامها العملية، والإيمان يمثل أصول العقيدة، والإحسان يمثل الحقيقة الإيمانية التي تُثمر الإخلاص والمراقبة، ولذلك لم يرد في الحديث ما يدل على استقلال أحد هذه الأبعاد عن الآخر، بل جاءت جميعها في سياق واحد .

ذلك أن الشريعة لم تأت لإصلاح الظاهر وحده ولا الباطن وحده، وإنما جاءت لإقامة الإنسان على العبودية الكاملة، وذلك لا يتحقق إلا إذا توافق ظاهر العمل مع باطن الاعتقاد، "لأن الأعمال الشرعية ليست مقصودة لأنفسها وإنما قصد بها أمور أخر هي

معانيها.... فنحن نعلم أن النطق بالشـــهادتين والصـــلاة وغيرهما من العبادات إنما شرعت للتقرب بها إلى الله، والرجوع إليه، وإفراده بالتعظيم والإجلال، ومطابقة القلب للجوارح في الطاعة والانقياد ".(22)

ومن هنا فإن الشـــريعة ليســـت مجرد منظومة من الأحكام القانونية، كما أن العقيدة ليست مجرد قضايا ذهنية، والحقيقة ليست أحوالا وجدانية مجردة؛ بل إن كل واحد من هذه الأبعاد يمد الآخر بأسباب بقائه واستقامته.

فالشريعة تضبط السلوك، والعقيدة تمنح العمل معناه، والإحسان يبعث فيه الروح، وإذا انفصل أحدها عن الآخر اختل البناء الديني كله.

ولذلك كان علماء أهل الســـنة من محدثين ومتكلمين، على اختلاف مدارســـهم، يرفضون الفصل بين هذه المراتب، وإن اختلفت عباراتهم في بيانها.

أما علماء السلوك والتزكية من أهل السنة، فقد وجدوا في مرتبة الإحسان الأساس الذي تقوم عليه التربية الإيمانية، لكنهم لم يفصـــلوا الإحســـان عن الشـــريعة، بل أكدوا أن الحقيقة لا تكون حقيقة إلا إذا كانت ثمرة للشريعة.

وقد عبر الإمام الجنيد البغدادي عن هذا الأصـــل بقوله المشـــهور: " مذهبنا هَذَا مقيد بأصول الكتاب والسنة ...وعلمنا هَذَا مشيد بحَدِيث رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. "(23) ، وهو مبدأ أصبح قاعدة راسخة في التصوف السني، وأكده أبو القاسم القشيري حين جعل الالتزام بالشريعة شرطًا لصحة السلوك، وقرر أن كل حقيقة تخالف الشريعة فهي دعوى لا حقيقة لها.

وهذا الفهم هو الذي تبناه الإمام أبو حامد الغزالي، إذ لم يرَ تعارضًـــا بين الفقه والتصـــوف، ولا بين العقيدة والســـلوك، وإنما رأى أن هذه العلوم تتكامل في تحقيق مقصـــد العبودية، ولذلك انتقد الفقيه الذي يقتصـــر على ظاهر الأحكام ويغفل إصـــلاح القلب، كما انتقد المتصوف الذي يدعي الوصول إلى الحقيقة مع إهمال أحكام الشريعة، مؤكدًا أن الكمال إنما يكون بجمع العلم والعمل والإخلاص.(24)

ومن خلال هذا العرض المقارن يتبين أن المدارس الســـنية الكبرى، على اختلاف مناهجها، لم تختلف في أصل التكامل الذي قرره حديث جبريل، وإنما وقع اختلافها في بعض القضـــايا النظرية أو المنهجية، بينما بقيت متفقة على أن الشـــريعة والعقيدة والإحسان تشكل بناءً واحدًا لا يقبل التجزئة.

وهذا الاتفاق يمثل أحد أهم المشتركات العلمية التي يمكن أن تُبنى عليها جهود التقريب بين المدارس الإسلامية، لأن النص المؤسس الذي تستند إليه جميعا واحد، وإن تنوعت مناهج شرحه وفهمه.

ومن ثم فإن التكامل الذي يقرره الحديث ليس مجرد تكامل بين علوم الشريعة، بل هو تكامل في بناء الإنسان نفسه؛ إذ لا يكون المسلم كاملًا إلا إذا اجتمع فيه صحة الاعتقاد، وصلاح العمل، وإخلاص القصد، وهي الأبعاد التي تمثل في مجموعها حقيقة العبودية لله تعالى.

المبحث الثالث ـــــ حديث جبريل عليه السلام ودوره في مواجهة خطاب التطرف والتكفير:

المطلب الأول ـ اختلال مبدأ التكامل وأثره في نشأة الغلو والتطرف:

لقد عرفنا من خلال المبحثين السابقين أن حديث جبريل عليه السلام أسس لنظرية متكاملة في بناء المعرفة الإسلامية، قوامها الجمع بين الإسلام والإيمان والإحسان، وتحقيق التكامل بين العقيدة والشريعة والسلوك، وبين العلوم الإسلامية المختلفة. وإذا كان هذا التكامل هو الأصل الذي قرره الحديث، فإن من اللافت للنظر أن معظم صور الغلو والتطرف التي عرفها التاريخ الإسلامي نشأت من الإخلال بهذا البناء المتكامل، سواء بتغليب جانب على آخر، أو بإخراج بعض الجزئيات عن موضعها الطبيعي حتى أصبحت أصولًا يُبنى عليها الولاء والبراء، أو بإهمال المقاصد الكلية للشريعة لصالح قراءات جزئية للنصوص.

ومن هنا فإن دراسة حديث جبريل في سياق مواجهة التطرف لا ينبغي أن تقتصر على الاستشهاد به في الدعوة إلى الاعتدال، وإنما ينبغي أن تنطلق من تحليل البنية الفكرية للتطرف نفسها، وبيان أن جذورها تكمن في اختلال ميزان التكامل الذي أرسته السنة النبوية.

فالتطرف ليس مجرد تشدد في بعض الأحكام، وإنما هو خلل في منهج النظر إلى الدين، ينشأ حين يُجتزأ النص من سياقه، أو يُقدَّم الفرع على الأصل، أو تُختزل حقيقة الإسلام في بعد واحد من أبعاده، وهو ما يتعارض بصورة مباشرة مع البناء الذي قدمه حديث جبريل.

فبينما كان مفهوم الولاء مثلا ولاء للدين وبالتالي فهو للوطن أصبح بسبب خطاب التطرف مفهوما طارداً وإقصائيا، رغم أن الإمام أحمد كان يقول: الولاية بدعة والبراءة بدعة فاحذروا منه، كما في رواية الأصطخري(25).(26)

إلا أن خطاب التطرف لاسيما في عصرنا حرف هذا المفهوم ولم يكلف المتطرفون أنفسهم البحث عن مضمون هذا المفهوم ولا قيوده ولا بنوده، -كما يقول الشيخ بن بيه- "ولم يجمعون بين النصوص، بل لا يذكرون النصوص الداعية الى البر بالآخر، (**لَا**

يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (27) ، ولا تقسيم العلماء لمراتب الولاء كالفخر الرازي في تفسيره(28) ، وابن العربي المالكي في أحكامه(29) ، فأرهقوا الأمة وحرفوا هذا المفهوم الذي كان عاملاً للسلم؛ وإذا كان لي أن أضيف على ما ذكره الشيخ؛ فتحضرني هنا قضية حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، حين كتب إلى المشركين بمكة كتابا ، فقال أحدهم أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم :والله ليدخلن حاطب النار قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (كذبت والذي نفس محمد بيده لايلج النار أحد بايع تحت الشجرة.)(30)

وكذلك نجد بعضهم يكفر المسلم بحبه لكافر ولو أحسن إليه أو عالجه، أو كانت بينهما رحم، وهذا طبعا ليس على إطلاقه، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: (إنك لا تهدي من أحببت)(31) ، فأثبت الله سبحانه حب نبيه صلى الله عليه وسلم لأبي طالب. والله سبحانه وتعالى يقول:(**والمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**)(32) ، فهل يقول عاقل بعد هذا أنه لا يجوز لك أن تحب زوجتك، والأصل في العلاقة الزوجة هو الحب والإعجاب.

وقد أشار الإمام الشاطبي إلى أن الانحراف في فهم الشريعة لا ينشأ غالبًا من إنكار النصوص، وإنما من سوء ترتيبها، أو إهمال كلياتها، أو تقديم الجزئيات عليها، وهو ما يؤدي إلى فساد في التصور قبل أن يؤدي إلى فساد في التطبيق.(33)

كما أن المتأمل في تاريخ الفرق الإسلامية يجد أن أكثر الانحرافات الفكرية نشأت من اختلال العلاقة بين الإسلام والإيمان والإحسان، فغلبت بعض الاتجاهات جانب العمل حتى جعلته معيارًا للحكم على إيمان الناس، بينما غلبت اتجاهات أخرى الجانب النظري حتى همشت أثر العمل والسلوك، في حين حافظ منهج أهل السنة والجماعة على التوازن الذي دل عليه حديث جبريل، فجعل العقيدة الصحيحة أساسًا للعمل، والعمل ثمرةً للإيمان، والإحسان غايةً للكمال الإنساني.

المطلب الثاني ـ حديث جبريل وبناء منهج الوسطية والاعتدال:

إذا كان المطلب السابق قد انتهى إلى أن الغلو ينشأ من اختلال مبدأ التكامل الذي قرره حديث جبريل، فإن النتيجة المنطقية لذلك هي أن العودة إلى هذا الحديث تمثل عودة إلى المنهج النبوي في صناعة الاعتدال. فالوسطية في الإسلام ليست مجرد موقف بين طرفين، ولا هي تسوية بين اتجاهين متقابلين، وإنما هي التزام بالبناء الذي أقامه الوحي، بحيث يوضع كل أصل في موضعه، وكل حكم في مرتبته، وكل مقصد في مكانه، دون إفراط ولا تفريط.

ومن هنا فإن حديث جبريل لا يقرر مراتب الدين فحسب، بل يرسم المنهج الذي يحقق التوازن بينها، وهو التوازن الذي يمثل جوهر الوسطية الإسلامية.

فبالإضافة للنصوص الشرعية الصحيحة التي تنهى عن الانحراف والتطرف كما ورد في القرآن الكريم :(لا تغلوا في دينكم)(34) ، وقوله تعالى:(وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها)(35) وقوله: (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ)(36) وقول النبي صلى الله عليه وسلم "**وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**"(37)

نجد أن الإسلام من خلال التكامل في هذا الحديث وغيره من النصوص قدر رسم منهجا واضحا لتحصين المجتمع ضد الانحراف والتطرف هو: منهج "الوسطية" في كل الأمور ، فأمة الإسلام أمة الوسط والصراط المستقيم. قال سبحانه وتعالى:(**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسَطَاً لِتَكُونُواْ شهداء على النَّاسِ وَيَكُونَ الرَسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيَداً**)(38) وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، قال: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا، ثم قال: " هذا سبيل الله "، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: " هذه سبل - قال يزيد: متفرقة - على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه "، ثم قرأ: (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل، فتفرق بكم عن سبيله)(39) الحديث(40) ، بمعنى : ن الأمة الإسلامية يفترض بها وفق هذه المقاربة أن " تستغل جميع طاقاتها وجهودها في البناء والعمران المادي والتربوي والعلمي والثقافي من غير إفراط ولا تفريط، فهي تحقق التوازن بين الفرد والجماعة، وبين الدين والدنيا وبين العقل والقوة وبين المثالية والواقعية وبين الروحانية والمادية وغيرها(41)

فالله سبحانه وتعالى رحيم بعباده، وقد يسر على الإنسان في أمور العبادة ولم يقضي بشقائه فقال سبحانه: (**مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**)(42) ،وقال تعالى:(**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**)(43) ، وقال:(**وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**)(44) ، وقد أمر الله تعالى بالتوسط في الإنفاق، فلا إسراف ولا تقتير، فقال تعالى:(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا).(45) وقال:(**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**)(46) ، فالتوازن في الشريعة الإسلامية في كل مناحي الحياة والنظر في كل الجوانب، وعدم طغيان جانب على آخر.

وإذا كان التطرف نتيجة طبيعية للجهل فإن الإسلام دين علم وتعلم وأول آية نزلت على نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم هي قوله تعالى: (**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**)(47) ، وقال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)(48). وقد

حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته فقال: " فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير."(49)

وفي المقاربة الإسلامية الشاملة نجد أن العالم أفضل من العابد ؛ لأن طلب العلم عبادة وزيادة، والمسلم مطالب بالتعلم فبالعلم يمكن أن يعبد الله على بصيرة ويحصن نفسه ومجتمعه ضد الانحراف وبالعلم يساهم في الدعوة إلى الله بحكمة ويساهم في بناء وطنه.

وإذا كان التطرف بسبب الظلم فإن الإسلام قد دعا إلى العدل وحارب الظلم. فنهى الله تعالى عن الظلم كما في الحديث القدسي:" يا **عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا.."**(50)

ونهى نبي الإسلام عليه السلام عن الظلم وعن الشح لما يمكن أن يترتب عليهم من غلو وردات فعل، فقال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»(51)

ومن مقتضيات المقاربة الإسلامية في الحياة أنها تقوم على العدل ونبذ الظلم بكافة أشكاله واحترام الحقوق الفردية والجماعية و القرآن الكريم والسنة النبوية شاهدان على ذلك، فشجع الإسلام الحكام على القسط بين الناس ورفض الإسلام التفاخر بالنسب والتفاضل على أساس الأعراق و الألوان.

وبتلك الثوابت والقيم التي تحقق العدل بين الناس وتنبذ الظلم هيأ الإسلام لإمكانية التعايش السلمي في الدولة الإسلامية بين مختلف الأديان والثقافات والأفكار فما بالك بالفرق والمذاهب الإسلامية.

ومن أهم التطبيقات المعاصرة لحديث جبريل في هذا السياق هو إعادة بناء مناهج التعليم الشرعي على أساس التكامل، فقد غلب على كثير من المؤسسات التعليمية في العقود الأخيرة طابع التخصص الدقيق الذي أدى -في بعض الأحيان- إلى الفصل بين العلوم الشرعية، فأصبح الطالب يدرس الفقه بمعزل عن العقيدة، أو يدرس العقيدة بمعزل عن مقاصد الشريعة، أو يتلقى علوم السلوك بمعزل عن أصول الفقه والحديث.

ورغم أهمية التخصص، فإن هذا الفصل قد ينتج رؤية جزئية للدين، بينما يقدم حديث جبريل نموذجًا تعليميًا يقوم على وحدة البناء المعرفي؛ إذ جمع في مجلس واحد بين أصول الاعتقاد، وأركان العمل، ومقامات الإحسان، وربطها جميعًا بهدف واحد هو تعليم الدين.

فبإمكان حديث جبريل أن يسهم بشكل كبير في معالجة أزمة التعليم الشرعي المعاصر التي ترجع في جانب منها إلى غياب الرؤية التكاملية.

لأن الناظر في خطاب التطرف ببصيرة الباحث المتدبر سيلاحظ طغيان مسلك الاجتزاء في التعامل مع النصوص الشرعية في كتب القوم ومحاضراتهم وهو مسلك "يعمد سالكه إلى بتر النصوص بعضها عن بعض من جهة الاستدلال والتعليل، أو الاحتكام والتنزيل، والاكتفاء ببعضها .."(52)

وقد ذهب ابن عاشور إلى أن من أعظم مقاصد الشريعة حفظ نظام المجتمع، وأن هذا المقصد لا يتحقق إلا إذا اجتمع صلاح الاعتقاد مع صلاح الأخلاق وصلاح المعاملات، وهي المعاني التي اجتمعت في حديث جبريل.(53)

ومن صور الوسطية التي يؤسس لها الحديث أيضًا التوازن بين النص والمقصد فالنبي صلى الله عليه وسلم أجاب عن الأسئلة بألفاظ موجزة، لكنه لم يحول الدين إلى قائمة من الأحكام المجردة، بل ربطها بالغاية التي من أجلها شرعت.

وعندما سئل عن الإحسان لم يعدد أعمالًا، وإنما بيّن المقصد الذي يجمعها جميعًا، وهو مقام المراقبة.

وهذا يدل على أن فهم النصوص لا يكتمل إلا بفهم مقاصدها، وأن الاقتصار على ظواهر الألفاظ دون النظر إلى حكمها وغاياتها قد يفضي إلى فهم مبتور.

ويبرز في الحديث كذلك التوازن بين العبادة والعمران. فعلى الرغم من أن الحديث انشغل ببيان أركان الدين، فإنه ختم بالإشارة إلى الساعة وأماراتها، وفي ذلك توجيه بليغ إلى أن المؤمن لا ينشغل بالغيب الذي استأثر الله بعلمه بقدر انشغاله بالعمل والاستعداد. وقد فهم العلماء من هذا التوجيه أن الإسلام لا يريد من المسلم أن يغرق في الجدل حول الغيبيات أو الأحداث المستقبلية، وإنما أن يعمر الأرض وفق منهج الله، وأن يجعل انتظار الآخرة باعثًا على العمل لا على العزلة أو الفوضى.

وقد أكد ابن عاشور أن من مقاصد الشريعة إقامة العمران الإنساني، وأن العبادات نفسها ليست منفصلة عن هذا المقصد، لأنها تبني الإنسان الذي يقوم بعمارة الأرض على أساس العدل والرحمة والإحسان.(54)

وبذلك يتبين أن حديث جبريل يؤسس لمنهج وسط يقوم على التكامل لا التجزئة، وعلى التوازن لا الإفراط، وعلى الجمع بين النص والمقصد، وبين العقيدة والشريعة، وبين الظاهر والباطن، وبين العبادة والعمران.

وهذا المنهج هو النقيض المباشر للبنية الفكرية التي يقوم عليها التطرف؛ لأن الفكر المتطرف لا يعيش إلا في بيئة الاختزال، بينما يعيش الاعتدال في فضاء التكامل الذي رسمه الوحي.

الخاتمـــة :

لقد حاول هذا البحث أن أتجاوز الشروح التقليدية التي اقتصرت في الغالب على بيان معاني الإسلام والإيمان والإحسان، إلى محاولة الكشف عن وظيفته المعرفية في بناء العلوم الإسلامية، وإبراز دوره في تحقيق التكامل بين المذاهب الإسلامية، واستثمار هذا التكامل في مواجهة خطاب التطرف والتكفير.

وقد كشفت الدراسة أن السرّ في المكانة الاستثنائية لهذا الحديث لا يرجع إلى اشتماله على أركان الإسلام والإيمان والإحسان فحسب، وإنما إلى الطريقة التي رتب بها هذه المراتب، فجعلها حلقات متكاملة، يكمّل بعضها بعضا، ولا يستغني أحدها عن الآخر. فالإسلام من غير إيمان يتحول إلى ممارسة شكلية، والإيمان من غير عمل يفقد آثاره في السلوك، والإحسان من غير التزام بالشريعة يصبح دعوى لا تستند إلى أصل. ومن ثم فإن التكامل الذي قرره الحديث هو تكامل بنيوي، لا مجرد جمع بين موضوعات متفرقة.

كما أظهرت الدراسة أن العلوم الإسلامية الكبرى قد نشأت في ضوء هذا البناء النبوي؛ فوجد علماء العقيدة في الحديث أساسًا لأصول الإيمان، واستند الفقهاء إليه في بيان أركان الإسلام، واستنبط منه علماء السلوك مقام الإحسان، وربط الأصوليون بينه وبين الكليات والمقاصد، حتى أصبح الحديث نقطة التقاء بين مختلف التخصصات الشرعية، رغم استقلال كل علم بمنهجه وأدواته.

ومن النتائج التي انتهى إليها البحث كذلك أن المذاهب الإسلامية السنية، على اختلاف مدارسها العقدية والفقهية والتربوية، قد اتفقت على مركزية حديث جبريل في بناء التصور الإسلامي، وإن اختلفت في بعض مناهج الشرح أو طرائق الاستدلال.

كما بيَّنت الدراسة أن كثيرًا من صور الغلو والتطرف التي عرفها التاريخ الإسلامي قد نشأت نتيجة اختلال مبدأ التكامل الذي قرره الحديث، وذلك من خلال تضخيم بعض المفاهيم أو تحويل بعض المسائل الاجتهادية إلى أصول عقدية، أو تقديم الفروع على الكليات، أو إهمال مقاصد الشريعة في فهم النصوص.

ومن هنا فإن مواجهة التطرف لا تقتصر على الرد على شبهاته، وإنما تبدأ بإعادة بناء العقل المسلم وفق النسق الذي رسمه حديث جبريل، القائم على التوازن بين العقيدة والشريعة والإحسان، وبين الظاهر والباطن، وبين النص والمقصد.

وقد أسفرت الدراسة عن جملة من النتائج، من أبرزها:

- أن حديث جبريل يمثل أحد النصوص المؤسسة للبناء الكلي للدين الإسلامي، وليس مجرد حديث في باب الإيمان.

- أن الحديث أسهم في تأسيس العلوم الإسلامية المختلفة، وربط بينها في إطار معرفي واحد.

- أن مراتب الإسلام والإيمان والإحسان تمثل نموذجًا للتكامل بين العقيدة والشريعة والسلوك، وليس لمجرد الترتيب التعليمي.

- أن المدارس الإسلامية السنية الكبرى تتفق على مركزية الحديث، مما يجعله من أهم النصوص الجامعة التي يمكن أن تُبنى عليها جهود التقريب العلمي.

- أن اختلال مبدأ التكامل الذي قرره الحديث كان من أبرز أسباب نشوء الغلو والتكفير قديمًا وحديثًا.

- أن استحضار الحديث في التعليم الشرعي والخطاب الديني يسهم في تعزيز الوسطية، وترسيخ السلم المجتمعي، وتجديد الفكر الإسلامي.

وفي ضوء هذه النتائج، يوصي البحث بما يأتي:

1- إعادة إدراج حديث جبريل بوصفه مدخلا منهجيا لدراسة العلوم الشرعية في الجامعات والمعاهد الإسلامية، بدل الاقتصار على دراسته في أبواب العقيدة أو الحديث.

2- تشجيع الدراسات المقارنة التي تبحث في المشتركات العلمية بين المذاهب الإسلامية انطلاقا من النصوص المؤسسة.

5. توجيه مراكز البحث والهيئات العلمية إلى إعداد مشاريع علمية تستثمر حديث جبريل في بناء خطاب إسلامي جامع يعزز ثقافة الائتلاف، ويحد من أسباب الفرقة والتنازع.

بيان تضارب المصالح:

يُقر المؤلف بعدم وجود أي تضارب مالي أو علاقات شخصية معروفة قد تؤثر على العمل المذكور في هذه الورقة.

الهوامـــــــــــــــــش:

1- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1955م، ج1، ص36.
2- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار طوق النجاة، بيروت، 1422هـ، ج1، ص19.
3- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ج4، ص284.
4- النسائي، أحمد بن شعيب، السنن الكبرى، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2001م، ج10، ص114.
5- أحمد بن حنبل، المسند، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2001م، ج1، ص27.
6- النووي، شرح صحيح مسلم دار إحياء التراث،1392هـ،ج1ص160
7- النووي، يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1392هـ، ج1، ص158.
8- ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2001م، ص55
9- ينظر: الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج1، ص101
10-الباقلاني، أبو بكر، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1987م، ص287.
11-يحيى بن شرف النووي، شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، 1392هـ، ج1، ص157)
12-ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، مؤسسة الرسالة، 2001م، ج1، ص71)
13-شرح العقائد النسفية، ص80
14-الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات والأصول والديانات ، أبي عمر الداني ، دار البصرة ، ط سنة 1426هـ 2005م ص 51
15-الانصاف في ما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ، الباقلاني ،ص53
16-نفسه ص 52
17- أبو منصور الماتريدي، كتاب التوحيد، دار صادر، 2001م، ص381
18- أبو المعين النسفي، تبصرة الأدلة، دار الكتب العلمية، 1993م، ج1، ص94
19- ينظر: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، كتاب الإيمان، مكتبة المعارف، 1999م، ص247؛ محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، دار الكتاب العربي، 1996م، ج2، ص66.
20- إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات، دار ابن عفان، 1997م، ج2، ص395
21- عبد الله بن بيه، الإرهاب: التشخيص والحلول، دار الموطأ، 2016م، ص74
22- إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات، دار ابن عفان، 1997م، ج32، ص120-121
23- أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، دار المعارف، ج1ص79
24- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، د.ت، ج1، ص3
25- طبقات الحنابلة، لأبي الحسين محمد بن محمد بن يعلى الموصلي، 35/1، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت
26- الكلمة التأطيرية،ص74
27- سورة الممتحنة، الآية:8.
28- مفاتيح الغيب، 191/8، لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ.
29-أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الإشبيلي، 438/2، 440، 462، 185/3، 227/4، تعليق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، 1424هـ/2003م.

[30]الحديث في صحيح مسلم: عن جابر، أن عبدا لحاطب جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو حاطبا فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كذبت لا يدخلها، فإنه شهد بدرا والحديبية». كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم،ح :2495

[31] سورة القصص،آية56

[32]سورة المائدة،آية5

[33] إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات، دار ابن عفان، 1997م، ج4، ص214)

[34]سورة النساء،آية171

[35]سورة الأعراف،آية56

[36]سورة الإسراء،آية33

[37]السنن الصغرى للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: 303هـ)، باب التقاط الحصى ،تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب،ط2سنة: 1406ه – 1986م،ج5ص268. والحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند عبد الله بن العباس، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، مؤسسة الرسالة،ط1سنة: 1421 هـ - 2001 م،ج5ص298.

[38]سورة البقرة،آية143

[39]سورة الأنعام،آية153

[40]مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله ابن مسعود،ح4142. تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة،ط1سنة: 1421 هـ - 2001 م،ج7ص207

[41]مرزوق بن صنيتان بن تنباك : موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية ، الوسطية (51)،الرياض،دار رواح للنشر والتوزيع ، 1421 هـ ، ص ، ص10 ،19

[42] سورة طه،آية2

[43] سورة البقرة،آية286

[44] سورة الحج،آية78

[45]سورة الإسراء،آية29

[46]سورة الفرقان،آية67

[47]سورة العلق،آية1

[48]سورة الزمر،آية9

[49]محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ)،الجامع الكبير - سنن الترمذي، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ،تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي ،ط سنة: 1998 م،ج4ص347.ح2685

[50] صحيح مسلم،كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم،2577

[51]صحيح مسلم،باب تحريم الظلم ،حديث رقم:2578،

[52] المصطفى سليمي، اجتزاء النصوص والمفاهيم الشرعية وأثره في الواقع، سلاسل السلم، دار الموطأ، ط: سنة 2017،ص46

[53] محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار السلام، 2001م، ص327

[54] محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار السلام، 2001م، ص245).